المقدمة:

إن حجم السكان أمر مادي ومحسوس يمكن لأي شخص في أي زمان وفي أي مكان أن يلاحظه. كظاهرة كثرة الإنجاب أو إرتفاع عدد الوفيات بين أوساط مجموعة سكانية ما.

فلا ريب إذا كان المفكرين و الحكام في مختلف العصور و الأزمنة قد انتبهوا إلى هذا الموضوع وأولوه الأهمية. فالمسألة السكانية من أهم المسائل المعقدة التي واجهها العالم في الماضي و الحاضر على حد السواء. ففي الماضي اهتم بعدد السكان القادرين على حمل السلاح لمعرفة قوة المجتمع الذي ينتمون إليه، كما اهتم بالمسألة السكانية لسن الضرائب على الرعايا و في العصور الوسطى اهتم بالسكان نتيجة الاكتشافات الجغرافية و الفتوحات المتعددة.

أما في العصر الحديث، فقد انقسم الاهتمام بالمسألة السكانية إلى قسمين: القسم الأول العالم المتقدم/المصنع الذي يشكوا من انخفاض عدد سكانه، فسنّ عدة قوانين بغية كثرة الإنجاب، والقسم الثاني العالم النامي الذي يشكوا من الإنفجار الديمغرافي الذي عاق كل سبل و جهود التنمية فيه، فعمل حكامه و مفكروه على التقليل من عدد سكانهم بسنّ مختلف الوسائل كتحديد السن عند أول زواج، منع تعدد الزوجات، سنّ برامج لتنظيم النسل و استعمال وسائل منع الحمل...الخ.

فلقد شغلت ظاهرة التزايد السكاني إهتمام المفكرين على مر السنين من مختلف الاتجاهات و التخصصات، إلاّ أن آرائهم إختلفت في تحديد مكانته بأبعاده الإنسانية المعقدة حيث شهدت روافد فكرية متتالية في تحليلها و تفسيرها و حتى التنبؤاتها، فمنهم من كان يرى في التزايد السكاني شر لا بد من محاربته، و هذا لما يجلبه من تعب و شقاء على كامل المجتمع كأفلاطون أرسطو طاليس مالتوس... الخ. فأبدوا بذلك أراء و أفكار للحد منه، فكثرة السكان حسب رأيهم تسبب التنازع بين الأمم و تثير الحروب مما يؤدي إلى إنخفاض المستوى المعيشي للأفراد، فتنتشر الأمراض و الأوبئة بسبب إنتشار الفقر. و منهم من كان يرى في التزايد السكاني خير و بركة و عامل للتقدم و الإزدهار فشجعوه حتى أنّ بعض المجتمعات كانت ترى أن إنجاب العديد من الأطفال في الأسر إرتفاعا لروح الوطنية فيهم اذ يؤدوا بذلك خدمات جليلة للمجتمع، و التي دعّمت خاصة في العصور الوسطى الذي تزامن مع اكتشاف القارة الأمريكية، إلى درجة أنّ بعض الحكومات سنّت قوانين لهذا الغرض، فمثلا في عهد الملكة إليزابيت سُنّ قانون يحدد من حرية العزاب و يعفي

المتزوجين من كثرة القيود، كما نصّ القانون الألماني على تخصيص بعض الوظائف للمتزوجين فقط و ارجاع ملكية الأعزب المتوفي إلى الدولة. كذلك شجعت بعض القوانين على الزواج و الإنجاب مثل قانون كولبير Colbert لسنة ١٨٦٦ الذي نص على إعفاء كل من يتزوج قبل العشرين سنة من الضرائب، و أعفي كل من كان له عشرة أطفال شرعيون.

كما ظهرت قوانين أخرى في هذا المجال في دول أخرى كالقانون الروسي الذي جعل الزواج إجباريا في الخامسة و العشرين سنة، كما منح هذا القانون مساعدات للمتزوجين[١].

هذه الرغبة في الانجاب و اكثار السلالة البشرية ذهب إليها منذ الازل كنفوشين في تعاليمه للصينيين و زوروستر في تعاليمه للفرس، كما وردت أيضا تعاليم الله إلى نوح و بنيه حين قال "أتمروا و أكثروا و املئوا الأرض".

إن الفكر السكاني القديم كما يتجلى لنا من كتابات كونفوشيوس و أفلاطون و أرسطو طالس كان يتميز بدراسة العلاقة بين حجم السكان و أهداف الدولة و المجتمع أو بالعدد السكاني المرغوب فيه داخل الدولة. حيث ربط كونفشيوس بين عدد السكان و مساحة الأرض و ربط أفلاطون بين حجم السكان و رفاهية و أمن المواطنين و أرسطو بين حجم السكان و التناسب بين نمو الطبقات تجنبا لحدوث اضطرابات و حرب بين سكان الدولة.

و من هذا الربط كله نستخلص أن الفكر السكاني القديم كان يهتم بالنتائج التطبيقية فقط و أهمل الجانب النظري الذي يضمن وجود علاقات بين الظواهر السكانية و غيرها من الظواهر الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية...إلخ، لتفسير الظاهرة السكانية و التنبؤ به. كما هو الحال فيما يعرف اليوم بالنظريات السكانية كنظرية الحجم الأمثل نظرية الفراد سوفي و نظرية التحول الديمغرافي...إلخ، و بهذا يمكن القول أن الفكر السكاني القديم لم يعتمد على المعطيات الإحصائية حول السكان و لا على البحوث الميدانية و إنما هو مجرد أراء و أفكار فلسفية لا غير.

هذا و قد بدأ الناس خاصة في أوروبا من إبداء انشغالاتهم منذ أوائل القرن التاسع عشر و غيروا نظرتهم إتجاه كون الزيادة السكانية خير و بركة للأمة. فبدؤوا يعبرون عن

[١]– عبد المجيد عبد الرحيم. علم الاجتماع السكاني، مكتبة غريب، القاهرة، السنة غير مذكورة، ص١١.

قلقهم من كثرة الولادات التي تؤدي بهم إلى الفقر. فتصارعت الإتجاهات و الأفكار بين حركتين، الأولى كانت تشجع كثرة النسل و هى حركة التجاريين ذلك بغرض تعمير الأراضي المكتشفة، و الثانية كانت تعمل على التقليل من النسل لحفظ المجتمع من جميع التوترات الإجتماعية و الإقتصادية و هى حركة الطبيعيين. و قاد هذا الاتجاه عدد من المفكرين مثل بنجمن فرانكلين B. Franklin في الولايات المتحدة الأمريكية و دافيد هيوم D.Heume و جوزيف توسند J. Tawtsend و وليام بيت W. Pitt و كودوين Godwin الفيلسوف الإجتماعي في إنجلترا، و المركيز دي كوندورسيه Marquise de Condorcet الفيلسوف الفرنسي في فرنسا.

إنّ مسألة التزايد السكاني ظلت تشكل هدفا إجتماعيا حيث طالما هددت بقاء الإنسان في مسيرة حياته لهذا جلبت إليها انتباه أكبر المفكرين و الفلاسفة منذ العصور الأولى من التاريخ. و نتج عن نظرياتهم و أفكارهم التي تركوها تراكم معرفي علمي، لولاه لما وصلت إليه الدراسة السكانية إلى الكم المعرفي الذي هي فيه الآن، فلا غنى للعلم و التحليل التقني للظواهر الديمغرافية عن النظريات السكانية التي تؤيده و تدعمه، فكلما تراكمت الخبرة المعرفية و العلمية، كلما زادت الحاجة لنظرية لتوجه البحث و تحدد هدفه، و تؤكد النتائج، و بدون الرؤية النظرية تصبح المعرفة مجرد تراكمات جزئية غير محددة لا فائدة ترجى منها.

و النظرية السكانية هي مجموعة من القضايا المترابطة التي تقوم على أساس الملاحظة و التجربة و تقدم تفسيرا لِظاهرة سكانية ما أوالتنبؤ بعلاقات يمكن ملاحظتها و التحقق منها[1].

إذا فالنظرية في تحليلها للمجتمع تقوم بتحديد البنى الأساسية للعلاقات الاجتماعية ذلك لأن المجتمعات هي علائقية فهي تتكون من علاقات دائمة بين الفاعلين بعضهم ببعض، و بينهم و بين الأشياء المادية التي تدخل في تكوين بيئتهم الإجتماعية أيضا[2].

---

[1]– ايان كريب .النظرية الاجتماعية من بارسونزالى هابرماس،ترحسن غلوم،**بمجلة عالم المعرفة**،عدد٢٤٤،المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،الكويت،أفريل١٩٩٩،ص ٤٣.

2– حسن محمد حسن محمد. علم اجتماع السكان و تنمية الموارد البشرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص٨٣.

و يبقى السؤال المطروح هو كيف يمكننا معرفة ما إذا كانت نظرية ما صائبة أم خاطئة؟

هذا السؤال ليس له جواب قطعي و حازم و لكننا نستطيع التمييز بين تفسير أكثر كفاية أو أقل كفاية تقدمه هذه النظرية أو الأخرى، و بما أننا نعيش في عالم لا يعطينا إجابات نهائية و قطعية، فمثلما يتغير هذا العالم و يصبح مختلفا عن ذي قبل كذلك تتغير النظرية التي هي وسيلتنا لفهم هذا العالم المحيط بنا من مجتمع إلى آخر.

و في كتابنا هذا سوف نحاول عرض أهم النظريات التي تكلمت عن السكان بالتعرض إلى أسباب وجودها و محتوياتها و الإنتقادات التي تعرضت لها. في مختلف العصور و الأزمنة.

و قبل هذا و إذا أردنا التعمق أكثر في قضية السكان. نرجع إلى التاريخ لنسأل دلائله و نستنبط شواهده، فكما قيل التاريخ مخبر علم الإجتماع. لهذا عرجنا قليلا لبعض الوقائع التاريخية.

آملين أن يكون هذا الكتاب لبنة تضاف لبناء صرح العلم و أن يكون عونا لطلابنا في فهم ما يتعلق بنشأة علم السكان و الديمغرافيا. و النظريات التي إكتنفها هذا العلم و نأمل أن تكون فائدته كبيرة على المهتمين بالدراسات السكانية.

openkandl.com